## الحمد والمدح والشكر والثناء والرضا

# وفروقها في اللغة والتراث

الدكتور عبد الكريم اليافي

من مزايا الحضارة العربية الإسلامية أنها أقامت تضامناً بين الفرد والمجتمع لا تشاداً بينهما ولا تنازعاً كما في المجتمعات الغربية الرأسمالية الحديثة ، ولا ذوبان الفرد في المجتمع كما يجري في المجتمعات المستبدة ، وذلك حينما نظرت إلى الفرد بصفته كياناً اجتماعياً وربطته هو والمجتمع بقوة متعالية يعنو لها الرعاة والرعايا وهم مسؤولون جميعاً في تصرفاتهم وأعمالهم تجاهها . بل زيادة على ذلك أقامت تلك الحضارة تضامناً بين المجتمعات كلها على كوكبنا الأرضي السابح في الفضاء بحيث يتصور مفكر إسلامي كالفارابي نشوء المدينة الفاضلة والأمة الفاضلة والمعمورة الفاضلة .

ويتجلى هذا التضامن في شتى ميادين الفكر العربي الإسلامي الذي استوعبت معظمه اللغة العربية الغنية المطواع . ونحن نريد هنا أن نستشف شيئاً من طواعية هذه اللغة وغناها الزاخر وحسن تأتيها لمختلف المعاني من خلال بعض الألفاظ المتشاكلة الفحوى التي ترتسم عليها أشعة ذلك الفكر المبدع ، وهي الحمد والمدح والشكر والثناء والرضا وما تعلق بها . هذه الألفاظ قد يقع بعضها في مواقع بعض ، وقد تختلف مواقعها فتختلف الدلالة . نجلو فروق معانيها أو تماثلها وتقاربها في شتى المجالات كما وردت في التراث العربي ، وكأنها الدرر والجمان والماس تزدان بها الغانية التي ليست هي بذاتها محتاجة للزينة ولا يزيد تحلّيها بها المتبدل في الحين بعد الحين إلا فتنة وحسناً وبهاءً وسنا .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يرى الزمخشري جار الله صاحب « الكشاف » أن « الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها . تقول حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على نسبه وشجاعته . وأما الشكر فعلى النعمة خاصة . وهو بالقلب واللسان والجوارح . » ويستشهد بقول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فالشكر هنا في البيت، قد أطلق على أفعال الموارد الثلاثة وهي الضمير أو القلب واللسان واليد ، وجعل بإزاء النعمة جزاءً لها متفرعاً عليها ، وكل ماهو جزاء النعمة عرفاً يطلق عليه الشكر لغة . قال الشريف الجرجاني في حاشيته على الكشاف : « فإن قلت : الشاعر جعل المجموع بإزاء النعمة ، فالشكر يجب أن يطلق عليه ، وأما على كل واحد من الثلاثة فلا ، قلت : لا شبهة في أن الشكر يطلق على فعل اللسان اتفاقاً . وإنما الاشتباه في إطلاقه على فعل القلب والجوارح ، حتى توهم كثير من الناس أن الشكر في اللغة فعل اللسان وحده . ولما جمع الشاعرُ الأولَ مع الأخيرين وجعلها ثلاثة عُلِمَ أن كل واحد شكر للنعمة على حدة ، كأنه أراد أن نعماكم كثرت عندي وعظمت ، فاقتضت استيفاء أنواع الشكر ، وبالغ في ذلك حتى جعل مواردها واقعة في مقابلة النعماء ملكاً لأصحابها مستفاداً منها كأنه قال : يدي ولساني وقلبي لكم فليس في القلب إلا نصحكم ومحبتكم ، ولا في اللسان إلا ثناؤكم ومحمدتكم ، ولا في اليد والجوارح إلا مكافأتكم وخدمتكم . وفي وصف الضمير بالمحجب إشارة إلى أنهم ملكوا ظاهره وباطنه » .

أما الحمد فباللسان كما جاء في الكشاف « فهو إحدى شعب الشكر ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبدٌ لم يحمده . وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها ، وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح ، لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال ، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويعقب الجرجاني على قول صاحب الكشاف إن الحمد إحدى شعب الشكر « أي باعتبار المورد ( اللسان واليد والقلب ) وإن كان الشكر باعتبار المتعلَّق إحدى شعب الإيمان » .

ذكرنا أن الحمد والمدح أخوان عند صاحب الكشاف ، أي هما مترادفان ، وقيل : أراد أنهما أخوان في الاشتقاق الكبير ، ويشهد له وجهان ينقلهما الجرجاني :

« الأول أن الشائع في كتب المصنف استعمال الأخوة فيما بين لفظين يتلاقيان في الاشتقاق الكبير أو الأكبر ، أما الكبير فبأن يشتركا في الحروف الأصول من غير ترتيب مع اتحاد في المعنى أو تناسب فيه كالجذب والجبذ ، وكالحمد والمدح ، وأما الأكبر فبأن يشتركا في أكثر تلك الحروف فقط ، ويتناسبا في الباقي مع الاتحاد أو التناسب في المعنى كأله ودله ، وكالفلق والفلج .

الثاني أن الحمد مخصوص بالجميل الاختياري ، والمدح يعمه وغيره يقال : مدحت اللؤلؤة على صفائها ، ولا يقال : حمدتها .» هذا رأي التفتازاني أي في تخريج كلام الزمخشري الذي ورد في الكشاف وفي الفائق أيضاً .

ولكن الجرجاني يذهب إلى أن المدح والحمد مترادفان عند الزمخشري « إما بعدم قيد الاختيار في الحمد أو باعتباره فيهما[1] » كما كتب أبو البقاء في كلياته .

هذا والثناء هو الذكر بالخير ، وقد عقبه صاحب الكشاف بالنداء وهو رفع الصوت إظهاراً لما ادّعاه من اختصاصه باللسان وكونه أشيع وأدل .

ونقيض الحمد والمدح الذم . ونقيض الشكر الكفران . ولكن المدح كما يطلق على الثناء الخاص ، أي الوصف بالجميل قد يُخَصُّ بعَدّ المآثر ، وعندئذ يقابله الهجو أي عد المثالب .

---

(١) من حق أبي البقاء أن يعيد لفظ إما فيقول وإما باعتباره فيهما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا وذكر القرطبي : « أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان . والشكر ثناء على المشكور بما أولى من إحسان . »

وبهذا الاعتبار يكون الحمد أعم من الشكر ، وهذا يتفق مع ما سبق من أن الشكر باعتبار المتعلّق إحدى شعب الحمد .

وقد جاء في القرطبي : « ويذكر الحمد بمعنى الرضا ، يقال : بلوته فحمدته أي رضيته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مقاماً محموداً ﴾ . »

وفي القرطبي : « الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل

وأبهج محمود الثناء خصصته بأفضل أقوالي وأفضل أحْمُدي »

وفي القرطبي أيضاً : « ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء . وليس بمرضي . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في « كتاب الحقائق » له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء معناه ( معنى الحمد لله ) الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه[٢] حتى حمدناه . واستدل الطبري على أنها بمعنى ، بصحة قولك : الحمد لله شكراً . قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ماذهب إليه ، لأن قولك شكراً إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم » .

ثم يعرج القرطبي على مثل ماجاء في قول الزمخشري فيورد : « وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالجوارح والقلب ، والحمد إنما يكون باللسان خاصة » .

هذا وفي اللغة جاء مصدر شكر يشكر شُكْراً وشكوراً وشُكرانا ، ويقال : شكر له وشكره وتشكر له بمعنى .

---

(٢) يريد تعليمه إيانا وكلامه له وجه ، وهو إضافة المصدر إلى المفعول به وإياه هو الفاعل ناب ضمير النصب عن ضمير الرفع وهو جائز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن هذه الألفاظ المتقاربة المعاني قد ينوب بعضها عن بعض كما سلف وإن كان بينها بعض الفروق التي اتضحت . وأكثر العلماء في التراث العربي الإسلامي يتناولون معاني هذه الألفاظ عند الحمد والشكر لله .

نعود إلى الحديث الذي سلف ذكره « ما شكر الله عبد لم يحمده » يعقب الجرجاني عليه بقوله : « فإنه إذا لم يعترف بإنعام المولى ولم يثن عليه بما يدل على تعظيمه وإكرامه لم يظهر منه شكر ظهوراً كاملاً ، وإن اعتقد وعمل فلم يعد شاكراً ، لأن حقيقة الشكر إظهار النعمة والكشف عنها ، كما أن كفرانها إخفاؤها وسترها . والاعتقاد أمر خفي في نفسه ، وعمل الجوارح وإن كان ظاهراً إلا أنه يحتمل خلاف ماقصد به . فإنك إذا قمت تعظيماً لأحد احتمل القيام أمراً آخر ، إذ لم يتعين للتعظيم بخلاف النطق ، فإنه ظاهر في نفسه ومعيّن لما أريد به وضعاً . . » .

فالحمد وهو النطق والثناء باللسان كما سبق « أظهر أنواع الشكر وأشهرها وأشملها على حقيقة الشكر والإبانة عن النعمة حتى لو فقد كان ما عداه بمنزلة العدم » .

وهذا عندنا يدل على شرف الحرف ، وصدق النطق به في الحضارة العربية الإسلامية ، لأن النطق شاهد على التصديق مبدئياً ، وتصديق القلب يستلزم العمل بمقتضاه وهو من دلالات التوحيد .

وقد عمد السيد الشريف الجرجاني في تعريفاته إلى قسمة الشكر شكراً لغوياً : « وهو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة من اللسان والجنان والأركان » ، وهو لا يختلف عما سلف شرحه . وشكراً عرفياً : « وهو صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خُلق لأجله » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما قسم الحمد أقساماً عدة :

« فالحمد هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها .

الحمد القولي : هو حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه .

الحمد الفعلي : هو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاءً لوجه الله تعالى .

الحمد الحالي : هو الذي يكون بحسب الروح والقلب كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية والتخلق بالأخلاق الإلهية .

الحمد اللغوي : هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان وحده .

الحمد العرفي : فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً أعم من أن يكون فعل اللسان أو الأركان » .

وقد ألم أبو البقاء في كلياته بهذه الأقسام ، وأعادها بيسير من التغيير ، وعرض لما في قضية الشكر والحمد من علاقة بعلم الكلام :

جاء في الكليات أن الشكر العرفي « هو المراد بعدم وجوب شكر المنعم عقلاً إذ لو وجب عقلاً لوجب قبل البعثة ، ولو وجب قبلها لعذب تاركه ، ولا تعذيب قبل الشرع لقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٢] هذا عند الأشاعرة القائلين بعدم وجوب الإيمان قبل البعثة ، إذ لا يعرف حكم من أحكام الله تعالى إلا بعد بعثة نبي . فمن مات ولم تبلغه دعوة رسول فهو ليس من أهل النار عندهم . وأما أبو منصور الماتريدي وأتباعه وعامة مشايخ سمرقند فإنهم قائلون بأن بعض الأحكام قد يُعرف قبل البعثة بخلق الله تعالى العلم به ؛ إما بلا سبب

(٢) الإسراء : ١٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كوجوب تصديق النبي وحُرمَة الكذب الضار ، وإما مع سبب بالنظر وترتيب المقدمات ، وقد لايعرف إلا بالكتاب كأكثر الأحكام ، فيجب الإيمان بالله تعالى قبل البعثة عقلاً ، حتى قال أبو حنيفة : لولم يبعث الله رسولاً لوجب على الخلق معرفته بعقولهم لما يُرى في الآفاق والأنفس »[٤] .

ولما عرض أبو البقاء أقسام الحمد ، كما جاء في تعريفات الشريف الجرجاني دون أن يذكره كما هي عادته ، أضاف في بحث الحمد الحالي لله : « فحمد الله عبارة عن تعريفه وتوصيفه بنعوت جلاله ، وصفات جماله ، وسمات كماله ، الجامع لها سواء كان بالحال أو بالمقال . وهو معنى يعم الثناء بأسمائه فهي جليلة ، والشكر على نعمائه فهي جزيلة ، والرضى بأقضيته فهي حميدة ، والمدح بأفعاله فهي جميلة . وذلك لأن صفات الكمال أعم من صفات الذات والأفعال ، والتعريف بها أعم منه باللسان أو بالجنان أو بالأركان » .

ثم يردف أبو البقاء : « وأما الحمد الذاتي فهو ، على ألسنة المكلين ، ظهور الذات في ذاته لذاته .

والحمد الحالي : اتصافه بصفات الكمال .

والحمد الفعلي : إيجاد الأكوان بصفاتها حسبما يقتضيها في كل زمان ومكان . ونفس الأكوان أيضاً محامد دالة على صفات مبدعها ، سوابقها ولواحقها ، مثل الأقوال والله سبحانه يثني بنفسه على نفسه : نعم المولى ونعم النصير » .

وقد عمد الصوفية إلى الشكر فأدخلوه في عباراتهم واعتباراتهم وجعلوه سمة لنصيب من السلوك الإنساني الاجتماعي فقد ورد في كلامهم : « شكر العينين أن

---

(٤) انظر أيضاً الفريدة الثالثة والعشرين في كتاب « نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد » لشيخ زاده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تستر عيباً تراه بصاحبك ، وشكر الأذنين أن تستر عيباً تسمعه فيه »[٥] . وهذا شأو عال في السلوك والأخلاق . قال الجنيد : « كان السري السقطي ، ( أي خال الجنيد ) إذا أراد أن ينفعني يسألني فقال لي يوماً : يا أبا القاسم ، أيش الشكر ؟ فقلت : ألا يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه ، فقال : من أين لك هذا ؟ فقلت : من مجالستك »[٦] .

وفرقوا بين موقع الحمد وموقع الشكر فقالوا : « الحمد على الأنفاس والشكر على نعم الحواس »[٧] كما قالوا : « الحمد على ما دفع والشكر على ما صنع »[٨] .

كذلك ميزوا هم والمفسرون شكر العبد من شكر الحق ، « فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له.ثم ان إحسان العبد طاعته لله تعالى . وإحسان الحق انعامه على العبد بالتوفيق للشكر له . وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بإنعام الرب تعالى »[٩] .

وكأنهم يتذكرون بيت الشعر الذي استشهد به الزمخشري فيفصّلون أقسام الشكر فهو : « ينقسم إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة ، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاق والخدمة . وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة . ويقال : شكر هو شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم ، ومشكر هو نعت العابدين يكون نوعاً من أفعالهم ، وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له في عموم أحوالهم »[١٠] .

ومن هذا يستبين ايثارهم السلوك زيادة على مجرد العبادة والعلم ولهم في باب الشكر وفي غيره نبذ لطيفة .

وقد فرقوا بين الشاكر والشكور . والشكور صيغة مبالغة لاسم الفاعل يستوي فيها المذكر والمؤنث : . قيل : الشاكر الذي يشكر على الموجود ، والشكور الذي يشكر على المفقود . ويقال : الشاكر الذي يشكر على الرفد ، والشكور الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يشكر على الرد ، ويقال : الشاكر الذي يشكر على النفع ، والشكور الذي يشكر على المنع . ويقال : الشاكر الذي يشكر على العطاء ، والشكور الذي يشكر على البلاء ، ويقال : الشاكر الذي يشكر عند البذل ، والشكور الذي يشكر عند المطل »[١١] .

ويشعر مطالع هذه الأقوال إلى أي حد بلغ هؤلاء في السيطرة على نوازع نفوسهم وسبل تصرّفهم .

من مزايا الحضارة العربية الإسلامية هذا التواصل بين الإنسان وربه ، فكما أن الإنسان يشكر ربه على إحسانه إليه ، كذلك في المقابل يشكر الربُّ عبده لطاعته له ولسعيه الصالح في خدمة الآخرين وابتغاء مصالحهم : ﴿ ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾[١٢] أي مُجازٍ على القليل كثيراً ، ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾[١٣] ووصف نفسه جل وعلا : ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسْناً ، إن الله غفور شكور ﴾[١٤] .

قال الإمام القشيري : « حقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وعلى هذا القول يوصف الحق سبحانه بأنه شكور توسعاً ، ومعناه أنه يجازي العباد على الشكر فسمي جزاء الشكر شكراً ، كما قال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وقيل : شكره إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير » .

---

(٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) الرسالة القشيرية باب الشكر .

(١٢) البقرة : ١٥٨ .

(١٣) النساء : ١٤٧ .

(١٤) الشورى : ٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجاء في تاج العروس : « وأما الشكور في صفات الله عز وجل فمعناه انه يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء ، وشكره لعباده مغفرته لهم .

وقال شيخنا : الشكور في أسمائه هو معطي الثواب الجزيل بالعمل القليل لاستحالة حقيقته فيه تعالى . أو الشكر في حقه تعالى بمعنى الرضا . والإثابة لازمة للرضا . فهو مَجَاز في الرضا ثم تُجوِّز به إلى الإثابة . وقولهم : شكر الله سعيه ، بمعنى أثابه »[١٥] .

ومهما يردُ من تفسير شكر الحق للإنسان فإنه يكفي الإنسان شرفاً وعلواً أن الحق يشكر له سعيه الصالح الحسن ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾[١٦] .

والشكر زيادة على الجزاء ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾[١٧] وليس فوق هذا حث على السعي الصالح والعمل الفاضل في المجتمع الإنساني .

إن الحضارة العربية الإسلامية حضارة اجتماعية تقصد إلى رفعة الإنسان وتعظيم شأنه . وغالبية العبادات إن لم نقل كلها تتعلق بتحسين المجتمع وتجويد العلاقات الإنسانية والتعاون والتضامن بين بني الإنسان .

---

(١٥) ذكر الزبيدي أيضاً : « اللحياني ممن سوّى الحمد بالشكر ولم يفرق بينهما ، وذكر أقوال غيره ممن فرق بينهما » . ثم قال : « وقد أكثر العلماء في شرحها وبيانها ومالها ومابينهما من النسب ومافيها من الفرق من جهة المتعلق أو المدلول وغير ذلك » .

(١٦) الإسراء : ١٩ .

(١٧) الدهر : ٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ورد في كتاب « فضيلة الشكر » للإمام محمد بن جعفر الخرائطي[١٨] رواية الأثر : « لم يشكر الله من لم يشكر الناس » . ومعناه عندنا أن الخير إنما يأتي بتعاون الناس ، فإذا تعاونوا شكر بعضهم لبعض سعيهم في الخير ، وكان ذلك شكراً لله على هذا التعاون . وقد ورد الحديث في كشاف اصطلاحات الفنون نقلاً عن أسرار الفاتحة : « من لم يحمد الناس لم يحمد الله » .

على أن الصوفية قد فرقوا أيضاً بين الشكر والرضا وتناقشوا في الرضا ، هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟

« فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه . وأما العراقيون فإنهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسباً للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » .

ويوفق القشيري بين القولين فيرى أنه : « يمكن الجمع بين اللسانين فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة »[١٩] .

وقد فرقوا بين نوعين من الرضا فرفضوا أحدهما ونوهوا بالثاني ؛ ذلك أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أُمر بالرضا به إذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين[٢٠] .

---

(١٨) محدث وأديب عاش في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع وعُمِّرَ نحواً من تسعين سنة وتنقل من سرمن رأى التي نشأ بها إلى بغداد ودمشق ويافا حيث توفي سنة ٣٢٧ هـ .
وينشر كتابه هذا الآن السيّد محمد مطيع الحافظ أمين مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق وقد جاء الأثر هذا موزوناً نصف شطر من البحر البسيط .

(١٩) الرسالة : باب الرضا .

(٢٠) المرجع السابق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا وقد قَصَرَ الغزالي في سِفْره الواسع « إحياء علوم الدين » كتاباً على الصبر والشكر ، خصص الشطر الثاني من هذا الكتاب لبحث الشكر . وجمعه للشكر والصبر في باب يدل على مابينهما من علاقة ، وقد سبق في كلامنا على معنى الشكور مايتضمن ذلك . والقارئ لما يكتبه مؤلف الإحياء لابد له من أن يُعجب ببيانه السهل وتحليله الدقيق ، ويدرك في الوقت نفسه مدى إفادته من رسائل من سبقه كأبي طالب المكي والمحاسبي والقشيري وغيرهم . ولاغرو في ذلك فإن العلم يزداد وينمو ويزكو بالمراجعة والمحاورة وإضافة المتأخر على ماسبق إليه المتقدم .

ويجد الباحث غنى في هذا المجال في كتب المفسرين والمحدثين وكلام علماء الصوفية والفقهاء ، اقتصرنا على تلخيص ماسنح منها لنا .

هذا وثمة بحوث نحوية في الكلام على حمد الله يجدها القارئ الكريم في كتب التفسير خاصة ، وهي معروفة ومتداولة ، وخلاصتها كما جاء في كليات أبي البقاء أنه ( الحمد لله ) من المصادر المنصوبة بالأفعال المقدرة السادة مسدها كما في شكراً وسقياً ورعياً ونحوها ، فحذف فعله لدلالة المصدر عليه ، ثم عدل إلى الرفع لقصد الدوام والثبات ، وأدخل عليه الألف واللام فصار الحمد لله . كما أن ثمة خلافاً في لام التعريف التي في الحمد حين نتلو « الحمد لله » ، أللجنس هي كما يقطع بذلك الزمخشري أم للاستغراق بمعنى كل حمد في الدنيا والآخرة يرجع اليه تعالى كما يذكر مفسرون آخرون كالنسفي .

وهذا التفريق بين معاني اللام راجع في رأينا إلى الموقف الكلامي . ذلك أن كل حمد وثناء راجع إلى الله عند التحقيق في رأي غالبية أهل السنة فهو خالق الأفعال المحمودة وهو وحده الفاعل المختار . أما عند المعتزلة فخلق أفعال المرء راجع إلى المرء نفسه .

هذا « والحميد من صفات الله تعالى بمعنى المحمود على كل حال ، وهو من الأسماء الحسنى » كما جاء في التاج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والسعيد من هدي إلى صراطه : « وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد »[٢١]

وقد سمت العرب أحمد ومحمداً ، وهي من أشرف أسمائه صلى الله عليه وسلم كما جاء أيضاً في التاج .

هذه الحضارة العربية الاسلامية صرفت وَكُدَّها وكدَّها نحو مكارم الأخلاق وحسن السيرة . لقد نوّهت بالحمد والشكر والرضا ، ولكنها نددت بالمدح . ورد في الأثر « احثوا التراب في وجوه المدّاحين » . جاء في « فيض القدير » أنه « عبّر بصيغة المبالغة إشارةً إلى أن الكلام فيمن تكرّر منه المدح حتى اتخذه صناعة وبضاعة يتأكل بها الناس ، وجازف في الأوصاف ، وأكثر الكذب . يريد لاتعطوهم على المدح شيئاً . فالحثي كناية عن الحرمان والرد والتخجيل . قال الزمخشري : من المجاز حثا في وجهه الرماد إذا أخجله . أو المراد قولوا لهم:بأفواهكم التراب . والعرب تستعمل ذلك لمن يكرهون » .

ثم يعقب المناوي مؤلف الفيض ، فيذكر ما قاله النووي : « ومدح الانسان يكون في غيبته وفي وجهه . فالأول لايمنع إلا إذا جازف المادح ودخل في الكذب فيحرم للكذب ، لا لكونه مدحاً ، ويستحب مالا كذب فيه إن ترتب عليه مصلحة ولم يجّر إلى مفسدة . والثاني قد جاءت أخبار تقتضي إباحته ، وأخبار تقتضي منعه كهذا الخبر . وجُمِعَ بأنه إن كان عند الممدوح كمال إيمان وحسن يقين ورياضة بحيث لا يفتتن ولا يغتر ولا تلعب به نفسه فلا يحرم ولا يكره . وإن خيف عليه شيء من ذلك كره مدحه . »

والخلاصة أن الشكر لله يتضمن عرفان آلائه ونعمه السابغة ظاهرة وباطنة والحمد لله يعمّ الشكر له ويتعرف صفاته وأسماءه الحسنى ، ويشتمل على الثقة به

(٢١) سورة الحج ٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خالق الحياة والموت ومالك الدنيا والآخرة . وكل ذلك يستلزم وجود التضامن بين الإنسان والكون ، ولزوم أداء المسؤولية الكبرى التي تقع على الإنسان في سلوكه السويّ ، وتعاونه هو وأبناء نوعه في سبيل العلم والفن والتقدم والرقي والتماس أسباب المعالي .

هذا وإن الحمد لله أول ما نتلوه في المصحف الشريف ، وهو أيضاً آخر دعاء أهل الجنان .

☆ ☆ ☆

**الدكتور عبد الكريم اليافي**

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net